

مفهوم الأثر والترنسندنطالي عند ليفيناس the trace and transcendentalism at Levinas

رحيم عمر*

¹ جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف، amarrahim59@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/06/12

تاريخ القبول: 2025/09/30

تاريخ الاستلام: 2024/10/07

ملخص:

نسعى من خلال هذا المقال للحديث عن فكرة الأثر والترنسندنطالي داخل الميتافيزيقا الليفيناسية، فتجربة الغيرية التي تقصد الآخر وفق شروط المسؤولية الاتيقية التي تقوم بها الذاتية لا تكون إلا لغاية فهم الأثر وبعده الترנסندنطالي ضمن هذه العلاقة.

إن فهم الأثر عند ليفيناس يتقاطع مع الفلسفة الدينية، حيث يُبين من جهة موقفه من الدين ومن جهة أخرى يُظهر شروط تجلي القداسة الإلهية ضمن الوجه الإنساني، إضافة إلى دورها الأساسي في شروط الغيرية، وهذا يؤدي إلى اكتشاف حقيقة ما وراء الوجه، حيث تظهر إمكانات فينومينولوجيا اللا-ظهور، والتي تجعل من الآخر سبيلاً لسماع نداء اللانهائي وتجلي أثره في العلاقات الإنسانية وهذا كقراءة جديدة لمعنى الألوهية.

كلمات مفتاحية: الأثر، الترנסندنطالي، الآخر، الوجه، اللانهائي.

Abstract:

In this article, we seek to talk about the idea of trace and transcendentalism within Levinasian metaphysics. The experience of otherness that is intended for the other under the conditions of the ethical responsibility of subjectivity is only for the purpose of understanding the trace and its transcendental dimension within this relationship.

Levinas's understanding of the trace intersects with religious philosophy, on the one hand showing his position on religion, and on the other hand showing the conditions for the manifestation of divine holiness within the human face, in addition to its essential role in the conditions of altruism, which leads to the discovery of the truth beyond the face, where the potential of the phenomenology of non-appearance appears, which makes the Other a way

* رحيم عمر

to hear the call of the infinity and its trace in human relations, as a new reading of the meaning of divinity.

Keywords: the traces; transcendence; the other; the face; the infinity.

1. مقدمة:

يعتبر "ليفيناس" أهم ممثلي الحلقة الفينومينولوجية المعاصرة في فرنسا، أين طوّر مفاهيم الفينومينولوجيا التقليدية بشكل كامل متجّهًا نحو المنهل الديني، فالقارئ لفلسفته يلاحظ بشكل جليّ حضور جانب القداسة في العلاقات الاتيقية، وهذه تعتبر نقطة تحوّل كبرى من "الفينومينولوجيا النظرية الهوسرلية" نحو الآخر الميتافيزيقي *l'autre métaphysique*، أمّا الأثر فهو ذلك الأساس الذي تُدرك به فينومينولوجيا "ما وراء الوجه" الإنساني، حيث يتجلى هناك الخطاب الإلهي وخاصيته اللانهائية، فعندما يُصرّح ليفيناس بغياب الإله لا يقصد بأنّه غير موجود، كما أنّ قدومه للفكر مثلما يعنون به أحد أعماله: "de dieu qui vient à l'idée" لا يعني أنّه مجرد فكرة في الذهن، أو يكون موضوعًا للعقل، فالآخر *autre* هو ذلك الشخص المطلق الغير متعاقب، الذي يملك سلطة قادمة من الماضي الغير زمني، الماضي السلبي وهو مقياس الزمن الذي يفهم به الأثر الإلهي والمؤسس لترنسندننتالية الإنسان الآخر، فتصبح تجربة الغيرية تحطيمًا لكل الأنساق والأنظمة الفكرية، بما في ذلك فكرة الكلية *totalité*، بعيدًا عن كل أنطولوجيا أو ميتافيزيقا مجرّدة، فالغاية الأساسية من هذا الأثر *trace* هو تجديد التقليد اللاهوتي الذي يبحث عن الإله داخل الديانات أو يحاول البرهنة على وجوده بالقدرات العقلية، لذلك ليفيناس يتخذ كحجة لتنفيذ التعاليم والأوامر الاتيقية التي تنهل من خطاب الوجه المقدس، حيث كل الوصايا تؤكد على احترام الآخر باسم الإنسانية التي تراعي الهوية والاختلاف، فما هو الأثر وما علاقته بالترنسندننتالي؟ وما علاقته بكل من الوجه واللانهاية *l'infini*؟

لأجل تحليل الإشكالية مطرح مجموعة من الأسئلة:

--ما هو الوجه؟

كيف وظف "ليفيناس" مفهوم الترنسندنتالي مقارنة بأستاذه هوسرل؟

ماهي علاقة الأثر بكل من الوجه واللانهائي؟

يهدف بحثنا إلى التعرف على المعنى الحقيقي للوجه، وإلى كيفية توظيفه في الجوانب الإنسانية، ولهذا السبب حاولنا التركيز على البعد الديني الذي لا يصحّ به كثيراً "ليفيناس" أثناء حديثه عن الوجه وما وراءه، فالأثر هو الأساس الذي يقدس به الوجه الإنساني لأنّه دلالة على تجلي كل ما هو إلهي ومقدس، فالترنسندنتالي ليس مفهوماً بقدر هو شعور الأنا أمام حدث التواجد مع الآخر المطلق، حيث يمكن له أن يمارس المسؤولية، وهو بهذا ينفذ أوامر الإله.

2. ماهية الوجه وفكرة الأثر

يعتبر الوجه مدخلاً أساسياً لفهم الاتيقا، والذي يعتبر أحد تطبيقات الفينومينولوجية التي يسعى من خلالها ليفيناس لتجاوز أستاذه هوسرل Husserl، فالوجه هو مراجعة لعدّة مفاهيم سبق وأن طرحها هوسرل كالقصدية *intentionnalité* و الأنا الترنسندنتالي *le moi transcendant*، وهو إضافة (الوجه) لمفاهيم تخدم الفينومينولوجيا في بعدها التطبيقي الإنساني، وهنا نشير إلى تجاوز كل من لحظتي الإدراك والفهم، إضافة إلى تجاوز ترنسندنتالية الأنا نحو مسعى بلوغ معاني "الأثر" و "المسؤولية" اللذان تقدمهما لنا تجربة الغيرية.

إنّ الحديث عن ماهية الوجه يشير نحو الامتثال لأوامر سلطة الأثر *trace* الذي يتلقاه الأنا كونه المسئول الأول عن حماية الآخر، فالأمر يتلقاه بشكل عفوي وبخطاب مطلق

وترسندنتالي، نابغ من خارج إرادته، فعلى هذا الأساس يرفض "ليفيناس" أن يكون الوجه **visage** هو ذلك الشكل الجمالي، أو الجسد المادي الذي نصادفه في يومياتنا عند اللقاء مع الناس، فهو ليس مجرد أنف أو أذن و ذقن، وغيره من الأعضاء التي يشملها وإنما هو صورة غير حسية ولا مرئية، فهو متعذر الإدراك والرؤية، فهو لا يشبه لا الموضوع ولا الظاهرة التي يمكن تفحصها، فالحقيقة الوحيدة التي نملكها حول الوجه تظهر من خلال أول لقاء بالآخر المطلق الذي يختلف عن الأنا، حيث في هذا اللقاء سيصبح الأنا في وضع الإجابة على النداء الذي تلقاه من سلطة نابعة من الماضي لا يمكن التصرف فيها، حينها سيكون في وضع الرهينة المضطهدة، وهنا نقصد سلطة الأثر الإلهي، فماهية الوجه الحقيقية تعني سماع خطابة الأساسي، فالوجه لغة وتعبير، يتكلم بخطاب مقدس وترسندنتالي.

إنّ السبيل الوحيد لإدراك علاقتنا مع الوجه يتمثل في اللقاء الفوري والاتيقي مع الغير، حيث يكشف الأثر الإلهي التي يعتبر الحماية الأساسية ضد عوز الوجه، والذي يصفه "ليفيناس" بالهشاشة **vulnérabilité**، والضعف، والعري، والحشمة، فكل ما يمكن أن يحميه الوجه من عيوب وإغراءات لا يمكن انتهاكها، فجميعها محمية من الخطاب التعليمي الترسندنتالي الذي يجسد حضور الأثر الإلهي عبر الوجه الإنساني، وهو الذي يمنع أشكال العنف والقتل، فهو بقدر ما يكون الوجه هش مغر للعنف والقتل فهو أيضاً مقاومة اتيقية تقيم مسافة ميتافيزيقية بين الأنا والغير **autrui**، وهو ما يعبر عنه "ليفيناس" باللانهائي باعتباره السلطة والخطاب وهذا ما يشير إليه كتابه "الكلية واللانهائي" **totalité et infini** بالقول: "إنّ هذا اللانهائي أقوى من فعل القتل فنحن نقاوم من خلال وجهه (الغير) فوجهه يحمل العبارة الأصلية التي أول كلماتها لا تقتل". (Emmanuel Levinas, 1991, p 217)

إنّ فعل القصدية غير كاف لوصف العلاقة الاتيقية "وجها لوجه"، فحسب قول ليفيناس السابق الوجه ليس حضوراً، وإنما يمثل غياب مطلق يرفض كل إمكانية للحضور والقابلية "للممثل" **représentation** أو الرؤية **vision**، وهذا ما نوّد تحليله في متن هذا

المقال، لذلك الترنسندنتالي بالمعنى "الهوسرلي" غير أساسي لوصف كل من الوجه والحدث الاتيقي.

يؤكد "ليفيناس" على أهمية المقاومة الاتيقية للوجه الانساني، بحيث تعتبر مسافة للبعد الإنساني، فالخطاب "المقدس" يبدأ من معرفة أنّ الوجه يحوي اللانهائي والذي يجسّد المقاومة التي تمنع كل أشكال العنف المحتملة ضد "وجه الغير" والمغري على القتل بفضل هشاشته وفقره الأساسي، فالعلاقة إذن ليست مع هذه المقاومة الاتيقية، وإنّما مع المطلق الآخر الترنسندنتالي، أي الغير، فهو الذي يقدم لنا تعاليم تعيد النظر في مبررات القتل وأشكال العنف التي تُنسب للجنس البشري تجاه بعضهم البعض.

إنّ المهمة الأساسية للأثر تتمثل في النهي عن القتل، وهو إدراك للقيمة الفعلية للوجه البشري، وهنا منطلق الغيرية الجذرية التي يسعى من خلالها ليفيناس إلى بناء العلاقات الإنسانية، والتي تهدم كل قيم التشابه والمبالاة، والنرجسية، كما تؤمن بكل أشكال وأسس الاختلاف مع الغير، كما تؤمن بالبعد الترنسندنتالي الذي يتمتع به الآخر كشرط أولي للحديث عن الهوية والتي لا تستقيم دون وجود الاختلاف مع الغير، وفي شتى صوره نجد كل من: الأرملة، اليتيم، الفقير، فالأثر الإلهي حقيقة ترنسندنتالية تبين ضعف الحقيقة البشرية، وحاجتها الدائمة للتعاون والتكافل، لذلك يعير ليفيناس مبدأ التعاون والتكافل كأول نداءات الوجه الإنساني، وهذا يسري ضمن منطق الاقتصاد كأول شروط المسؤولية، فالحديث عن القتل لا يقصد بع القتل الوجودي البيولوجي، وإنّما القتل الميتافيزيقي حيث تُرفض المساعدات التي يجب أن تقدم للمحتاجين، حيث يمنع إطعامهم وكسوتهم، أو إنصافهم، فهذا هو القتل الحقيقي الذي يكشفه لنا خطاب الوجه وأثره الترنسندنتالي، فالقتل بقدر ما هو غير فعلي إلا أنّه دعوة لمسؤولية شاملة ومطلقة، غير قابلة للنقاش أو الاستبدال، أو حتى التفكير في التخلي عنها، فهي مسؤولية شاملة سابقة على حرية الأنا، تنبع منة ماضي سحيق، من مصدر إلهي يأمر بالإطعام والإنصاف وإقامة علاقات تؤمن بقيم الاختلاف والتعدد، يقول ليفيناس عن أهمية هذه الفكرة في الخطاب التعليمي للأثر الإلهي

الذي ينص على: "إطعام الجوع وكسوة العراة، وسقي العطشى، وإيواء أولئك الذي لا يملكون مأوى" (François, 1789, p 99)، فحقيقة الأثر تكمن في تعاليم الوجه التي تنبع من أوامر إلهية، فهي جملة وصايا ترسندنتالية تُقدس الآخر، وتؤكد على الغياب المطلق للإله تمامًا مثل الشخص الثالث من ضمير الغائب.

2- تجربة الأثر باعتباره حدث "الغائبية" وللماضي المطلق:

تكشف فينومينولوجيا الوجه عن العيوب التي خلفتها الآثار الهوسرلية، فكما أشرنا سابقا إلى خروج الوجه الإنساني من نسق الفهم والوعي، لأنه ليس موضوعاً للإدراك، ورغم ذلك فهو يحافظ على البعد الترندنتالي، فالخاصية الترندنتالية علينا تمييزها أنها تعود للآخر المختلف، والمنفصل عن الذات، أي شرط الهوية التي تؤمن بالاختلاف، فالماهية الحقيقية للوجه هي الخطاب اللغوي المسموع الذي لا يكف عن القول وعن الأمر، فرغم الغياب الذي يميزه إلا أنه أصل القداسة والبعد الروحي والإنساني.

إنّ الحديث عن تجربة الغائبية *illéité* يتوقف على معرفة الطريقة التي يدرك به أثره، فالغائبية لفظ يستعمله "ليفيناس" عن للتعبير عن نمط الغيرية، فهو يعكس حقيقة الشخص الغائب المهم في العملية الكشفية للأثر ولقدسية العلاقة الاتيقية، لكنّه هو ذلك الذي لا نملك عنه أي حضور وبالتالي لا نملك عنه أيضاً أي حقيقة، فالغائبية تقربنا إلى الفهم الفعلي للأثر، فهو شخص غائب-هو- يمثل كل ما هو غائب، لا يقبل الحضور، أو المثل أمام أعين الذات، فالأثر هنا هو بنية خطاب تعليمي أساسي يذهب بنا إلى ما يشير إليه ليفيناس بمصطلح *l'au-delà*، أي ما وراء الوجود، وما وراء العالم، فالذي يظهر لنا أمام علاقتنا المباشرة بالآخر لا يكفي لتجربة الوعي بالأثر، ولا حتى تأسيس الخطاب الترندنتالي، "فالغياب *l'absent*" (Levinas, 1972, p 63) الذي يكشف عن الأثر يصبح حضوراً في الوجه، فهو بذلك عبارة عن لغز أو سر يتغلّف به الوجه، فالأثر لا يكون خاصاً بالشخص الثالث إلا بكونه منتمياً للماضي البعيد-السحيق، حيث يكشف لنا عن اللانهائي، وبالتالي حل اللغز، إنّ ماهية الانكشاف هنا لو نوظف اللغة "الهايدغرية" تتوقف على تلبية

النداء، أي الإجابة، ويكون ذلك وفق التوجه السخيّ نحو الآخر، حيث تتخلى الذات الخاصة بالأنا عن نرجسيتها، وتنصت لهذا الآخر، أي يتم كشف لغز أثر "الغائبية" والذي نلتمسه كحدث أساسي يستلزم الوعي بغياب الشخص الذي نقيم العلاقة معه، فنكون في اتصال مع الماضي واللغز الترنسندنتالي، الذي تتجلى فيه الذاتية، أي المسؤولية، يقول ليفيناس: "يقترّب الأنا من اللانهائي عبر توجّهه بسخاء نحو الأنت *généreusement* الذي يكون معاصرا لي، والذي يحضر داخل أثر الغائبية، وذلك من خلال عمق الماضي، فأنا أقترّب من اللانهائي بنفس القدر الذي أنسى ذاتي لأجل قريبي الذي يقصّدي (Levinas, 2001, p300).

ينتهي خطاب الأثر للميتافيزيقا الأساسية، وهي الاتيقا أو الفلسفة الأولى التي تُعنى بالعلاقات الإنسانية، فسماع أثر الماضي لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الوجه، معناه يصبح الوجه أثر للماضي السحيق المطلق، الذي لا يمكن التحكم فيه، يستعمل "ليفيناس" هنا كلمة الماضي للدلالة على الحرّية المفقودة، وعلى المسؤولية المقررة سلقاً، التي لا يمكن مراجعتها، وينبغي التنبيه هنا أنّه بالرغم من كون الأثر يحيل إلى الماضي، فإنّ المسؤولية التي تكون في الحاضر والمستقبل لا يمكن تغييرها أو رفضها، لهذا السبب الأثر يخرج من دائرة الزمن، حيث أنّه عبر العلاقة الاتيقية تمر عبر نهاية الزمن، من فجة منسية غير قابلة للاختزال، فلو لم يكن الأثر دالا على الماضي لما كانت المسؤولية، فالماضي السحيق والبعيد جدا هو الحدث الفعلي للاتيقا، وأصل التفكير في المستقبل، فرباط المسؤولية على الآخر لا يبدأ من الحاضر، أو من الحرّية، وإنّما من الماضي والغياب الذي لا يمكن محوه أو نسيانه، أو التحكم فيه.

يظهر الأثر المهمة الفعلية للذات نحو المستقبل، أي تلك المسؤولية الموكلة إلى الأنا من الماضي أو التحكم فيه، لأنّه ليس ماض زمني، يحدد كل الأوقات وفق خطاب ترنسندنتالي، فالأنا لا يتم تعريفه أو تحديد هويته إلا باعتباره كائناً مسؤولاً بالرغم من حرّيته، فهو يُصنّف ويلبي النداء، فيصبح الأنا مجرد ذاتية في خدمة الانسان المحتاج دون تحديد الشروط، لأنّ أصل النداء قادم من الماضي حيث أثر الغائبية التي تكشف لنا عن كل

ما يمكن أن يتوارى فما وراء الوجود، أو كل ما يمكن أن يتباعد، الأثر هنا ينفلت من النسق والترتيب، وينسجم مع الفوضى *an-archi*، "فأثر الغائبية" لا ينتمي إلى الحقل الفينومينولوجي حيث مفهومي "الظهور" و"الاختباء"، وإنما إلى البعد السلطوي الذي يظهر العلاقة الترندنتالية القائمة على الانفصال والتباعد المطلق، وفي ذلك إشارة نحو الهروب ومغادرة هذا العالم حيث الما وراء.

يتميز الأثر "بالأحجية" و"الابهام"، ورغم ذلك يمثل خطاب سلطوي قيمته الأساسية لا تكمن في الرؤية بل في حدث "الانصات"، فإذا كان الماضي الميتافيزيقي يؤكد لنا أثرية الوجه فإن هذا الأثر لا يرى وإنما يُسمع، وهذا من باب أن الوجه يتكلم ويخاطب، ويأمر، فدلالة الكلام والخطاب هو تأكيد مسؤولية شاملة لا تقبل الأعذار التي يمكن أن تمارسها الذات، وهذا يعني فقدان الحرية لصالح المسؤولية على المستقبل، والأثر الذي يسمع من الماضي ينفلت من الزمن، أي أنه ينتمي للإتيقا، وفي الاتيقا توحد كل الأوقات، فهو ماضي المسؤولية والسلطة لا الماضي الزمني: يُعبّر ليفيناس عن هذا الماضي السحيق بالقول: "لا يقود الأثر باعتباره أثراً للماضي فحسب، بل هو أيضاً ممرّ نحو الماضي البعيد جداً، عن أي ماضٍ وأي مستقبل، فهو الذي يكون مرتبطاً في زمني، نحو الماضي الآخر، أين توجد الأبدية المطلقة للماضي التي توحد جميع الأوقات". (Emmanuel Levinas, 1972, p 68).

إنّ هوية الماضي السحيق *le passé immémorial* الاتيقي تتشكل وفق "حدث الغائبية"، ومعنى هذا يعني قابليته للإفصاح والكشف عن فينومينولوجيا ما وراء الوجه، أين يوجد أثر اللاهائي، وحقيقة الإله، وهذا ما يؤكد من جهة أخرى أن الأثر ليس علامة كاشفة للآخر، إلا أن "ليفيناس" لا يستثني هذا الآخر كلية لأنه الأساس الذي يكشف لنا ما يتوارى خلف الوجه، أي الإله، وبما أن الأثر ينفلت من الزمنية والتعاقبية فإنه لا ينتمي للنسقية والنظام، والتألف، فهو حسب تسمية ميشال بلاي *archi- trace* "بمعنى أنه يتخلّى عن فكرة الحضور الوقوف أمام سلطة الوعي، فهو يرمي لإعطاء معنى جديد عن أي كلام قد

قيل أو سيقال، حسب "جاك دريدا" *archi-écriture* ، يستقل عن كل حضور" (blay, 1031 p, 2003) فالأثر هو كاشف لأصل الحقيقة الميتافيزيقية، لحقيقة الغائبية الكاشفة للترنسندنتالي، وهو على حد تعبير "ليفيناس" "مزعجٌ للعالم"، فمعناه الأصلي مستوحى من البصمة التي تركها أولئك الذين أرادو محو آثارهم من أجل تحقيق جريمة كاملة على سبيل المثال.

يدل أثر "الغائبية" علة نقطتين مهمتين وهما: فكرة الفصل بين الذات والآخر، وفكرة اللا-مكان، فليفيناس يؤكد على أهمية المسافة الاتيقية وعلى إلغاء خاصية المكان، فالعلاقة الاتيقية لا تحددها أي شروط، فكل ما هنالك هو المقاومة الاتيقية لوجه الآخر، فالأثر يبدأ من معرفة أنّ الآخر متفوق مستقل وحرٌّ عن الذات، ما يعني أنّه يملك السلطة على الأنا بفعل اللانهائي، فبقدر إغرائية وجهه وهشاشته، يستحيل تجاوز مقاومة اللانهائي، فيستحيل بذلك فعل القتل، وارتكاب العنف، أو الإساءة للآخر، أو حتى التهرب من المسؤولية التي تخضع لشروطي الانفصال، وتقبل الاضطهاد وحالة الرهينة، فالانفصال يعني تجربة مقاومة اتيقية لا تخص الآخر بل تخص اللانهائي، حيث يعطي التعاليم التي تعيد النظر في مبررات القتل والعنف أو سبب التخلي عن المسؤولية، "فالشخص الثالث" حدٌ ضروري للعلاقات الاجتماعية، فهو تأكيد على أهمية العلاقات الإنسانية وفكرة الإله التي تحضر فيها رغم عدم انكشاف هوية الآخرين، ورغم غيابهم ، فكل الوجوه تدل على أثر الغائبية: "إنّ الوجه عبارة عن زيارة وترنسندنتالي *visitation et transcendance* ، لكنّه مفتوح بشكل دائم، وكما يمكن له أن يكون أثر للغائبية *trace de l'illéité*" (Levinas, 2001, p 281).

إنّ المهمة الأساسية للأثر تتمثل في البعد الإلهي والمتجلي في منع القتل، فهو يشير إلى القيمة الفعلية للوجه الإنساني، وهنا منطلق الغيرية الجذرية التي سعى "ليفيناس" لتأسيسها، وأهم شروطها تتمثل في هدم قيم التشابه، قيمة الحرية، فتؤمن بروح الخضوع والاستجابة وفق تعاليم الاختلاف التي تؤسس للهوية، فالآخر كائن حر متعالٍ عن الأنا، لا يترك أي مساحة لتمثله أو السيطرة عليه، فالآخر هو الذي يتجلى في صور الغير، الفقير،

الأرملة، اليتيم، بينما يتوجب على الأنا رعاية هذه الصور وفق الوصايا التعليمية للأمر الإلهي الذي يصدر من الوجه على شكل أثر لحدث الغائبية، ومن جهة أخرى فإنّ هذا الأثر الإلهي يعكس ضعف الحقيقة البشرية التي تطلب الرعاية، التي يجب أن تُقدم ضمن الأوليات، فهي تُقدم على حقوق الأنا، وعلى شروطها، فالإنسان بقدر ما كان ضعيفاً أو أرملاً أو يتيمًا كانوا جميعاً كاشفين للحقيقة الإلهية، وهي حقيقة أثرية، تطلب من أي إنسان رعاية المرضى وإطعام الجوع، وكسوة العراة، وسقي من تمر عليه أزمة العطش، وأزمة المأوى، فتلك صور قصوى تكشفها فينومينولوجيا الأثر من وراء الوجه الإنساني حيث الإله، وأيضاً الوصايا الترנסندننتالية، التي تصدر من الأثر، ومن وجه الإنسان، ويقول "ليفيناس" عن هذه التعاليم الدينية: "يأمر الأثر الإلهي بإطعام الجوع، وكسوة العراة، وسقي العطشان، وإيواء أولئك الذين ليس لهم مأوى" (François poirié, 1987, p 99).

3- تجربة الأثر وفكرة اللانهائي

إنّ الدلالة الوحيد للأثر تشير إلى فكرة المقدّس والترنسندننتالي، أي تجربة دينية تعبّر باستمرار عن حضور الأثر الإلهي التي توارى تعذر رؤيته في الوجود، أو الاستدلال عليه ببراهين عقلية، إذ يمكن سماع نداء الإله فقط عبر العلاقات الاجتماعية، وهذا البند الأساسي يستمدّه ليفيناس من النصّ التلمودي، في سفر الخروج، الفصل 33 الذي توجد فيه العبارة التالية: "إنّ التوجه نحوه (الإله) لا يعني إتباع هذا الأثر الذي ليس مجرد علامة، بل يكمن في التوجه نحو الآخرين الذين يقفون في أثر الغائبية" (Levinas, 1972, pp 69-70). في النصّ السابق إشارة إلى إدراك اللانهائي المتوقفة على العلاقات الإنسانية، وتتجلى قدسية الإله عبر رفضه الانكشاف بصورته في الوجه، واكتفاءه بأثري يتجلى في الآخر، وتركيز "ليفيناس" على أهمية الشخص الآخر تحديداً هو أنّ الإله يحب الآخر الغير محدد، والأجنبي، فهو يوصي برعايته، وهذا تأكيد من جهة أخرى على حجم المسؤولية المخولة للأنا، فلهذا الأثر لم يكن يوماً دالاً على الماضي أو البعد عن القريب، فرغم انفلاته عن الزمن إلا أنّه دعوة فورية للعناية بالإنسان، ويعبّر "ليفيناس" عند هذه الفكرة بقوله: "لا

يجب أن نعتبر هذا الأثر ككلمة مضافة، وإنّما يمثل القرب من الإله داخل وجه الآخر القريب" (Levinas, 1991, p 73).

إنّ نمط التفكير في اللانهائي يكون بطريقة مرئية *concrétude* مع الانسان الآخر، فهو يحمل رسالة مقدسة، تنقل الخطاب الإلهي الذي يوصي الذات بواجبها، كما يذكرها بعدم الاهتمام بما يقدمه الآخر حيال الأنا، فكل علاقة قربية تبين لنا المجد الإلهي، كما تبين نمطي الحضور والغياب، ونمطي النداء والإجابة، فاللانهائي هو شمل لمفاهيم اللامحدود، الماضي، الغياب، الآخر المطلق، فالأثر مفهوم أساسي لفهم تجربة الما وراء *l'au-delà* وهذا تأكيد على فينومينولوجيا الغياب أو الظهور مما أشرنا إلى نقطة الخلاف بين "هوسرل" و"ليفيناس" في بداية هذا المقال، فالحضور لا يكشف لنا حقيقة اللانهائي، ولا تجربة الغريبة، ولا الميتافيزيقا، فمثلا الإله أو اللانهائي كما يسميه "ليفيناس" يفرض أن يُرى في الوجه، وهذا اقتداءً بالنصوص المقدسة التي تنفي رؤية الإله، إلا أنّه سيظهر مختلف عن شكله ونمطه، متجليًا كأثر، يقول "سالمون مالكا" Salomon Malka في عمله "الحياة والأثر" *la vie et la trace* "المخصص لسيرة ليفيناس: في الفصل الثالث والثلاثون من الأصل 33، طلبُ موسى (النبي) من الرب: أرني مجدك، فأجابه الرب: سترون أثري، أمّا وجهي فهو غير مرئي" (Malka, 2005, p 98)، فهذا تأكيد صريح على قدسية الإله التي لا يمكن أن تنزل إلى مستوى البشر، ومهما كانت مكانتهم وعقيدتهم، فالصورة الحقيقية تكمن في الأفعال والآثار التي تتجلى في الخلق، كما أنّ الخطاب له دلالة تحريم الصور، أو التجسيد الإلهي من جهة ومن جهة أخرى كشف المبدأ الترنسندنتالي للوجه.

إنّ علاقة الأثر باللانهائي (الإله) تتجلى في حل المفارقة الموجودة بينهما، فمن جهة نرى تميّز الإله بالغياب لكنّه يحضر عبر الأثر، في حين أنّ الأثر متعذر الرؤية، متأصل في حقيقة ماضيه، أمّا التأكيد على عدم ظهور الوجه يشير إلى استبداله بترنسندنتالية اللانهائي، وتحول هشاشة الوجه إلى أمر إلهي، فاللانهائي يتحول إلى وظيفة إتيقية، أمرة تخاطب وتطلب الانصباب والإجابة، فلو أقمنا مثلا مقارنة بين "الأخلاق" الكانطية وبين ميتافيزيقا "ليفيناس"، سنجد أنّ الإرادة الخيرة هي المسؤولة على أداء أخلاق الواجب وكأنّها أوامر إلهية، حيث الإله عند "كانط" هنا يبقى فكرة ضرورية للعقل المحض، لكنه ليس شرطاً أساسياً للأخلاق، أي أن الأخلاق لا تخضع لأي إرادة غير إرادة الذات الخيرة، وحتى ولو كانت

دو بعد ديني، في حين نجد الإله مصدر ضروري للتقرب نحو الآخر لدى ليفيناس، أمّا الاتيقا فهي لا تقوم إلا كونها تنفيذاً للأمر الإلهي، بعيداً عن رغبة الأنا، أي تلبية الواجب الاتيقي يصبح إجابةً على النداء، ما يعني أنّ الذات عن تكون فاقدةً للحرية والإرادة، نتيجة فعل الخضوع والإنصات للأمر الذي لا يقبل النقاش.

4- الأثروفكرة الخلق:

بما أنّ الأثر يعبر عن الحقيقة الإلهية فإنّ الخلق *création* أيضاً تجلياً تجسيدا لحقيقة اللانهائي، فالتيولوجيا *la théologie* التي تعبر عن حقيقة "الكتاب المقدس" هو حكمة "مخافة الرب"، لذلك فهي تنفلت من الاختزال الأنطولوجي لفكرة اللاهوت، وفكرة الأثر هنا تشير إلى تحقيق فكرة "المقدس" بين العلاقات الإنسانية، وهنا يأخذ "ليفيناس" بفكرة موسى بن ميمون *maimonide* الذي يشيد "بالعقل المستوحي (الوحي) من الترسندنتالي، بدلا من العقلانية ذاتها"، (chalier, 2002, p 11)، لكنه لم يخضع الفلاسفة لسلطة الأنبياء، لذلك الأثر يصبح انفصالا ناتجا عن تحقق الأثر الإلهي.

تتمثل مشكلة الخلق في إيجاد أثر ما، كشكل ترك صورة، لأنّ الخلق هو فعل اليجاد، فالخلق هو من يعتمد في وجوده على عناية وإرادة غيره، أي موجدته وعلته، لكنّ الخلق عند ليفيناس لا يترك مثل هذا التعلق وإنما هو انفصال تام، فالخلق من العدم يعني ترك أثر خارج نظام معين، أي توفير الحرية، فالانفصال هو السبب الذي يؤدي إلى الرغبة في اللانهائي، فلو لم يكون هناك انفصال لما كانت هناك حرية ورغبة.

تتمثل فكرة الانفصال في البحث عن اللانهائي *infini* عبر النهائي *fini*، أي البحث عن الإله ضمن المخلوقات، والانسان صورة كاملة للخلق، فنتيجة الخلق هي خلق كائن قادر على البحث وسماع اللانهائي، وهذا يعني فقدان فكرة الإله التي يمكن أن تصبح موضوعاً، فالإلحاد هو أن يصبح اللانهائي متصلاً بالذات ويكون موضوعاً قابلاً للفهم والبرهان، العقلي والالحاد الحقيقي ليس سوى رغبة في بلوغ في الإله الحقيقي عبر الوجه المنفصل عنا، فليفيناس لا يرى أنّ انفصال الوجود عن اللانهائي عبارة عن سلب ونفي، بل رغبة فيه، يقول ليفيناس: "يكن جوهر الوجود المخلوق في انفصاله عن اللانهائي، وهذا الفصل ليس مجرد نفي ... بل إنها تنفتح بالتحديد على فكرة اللانهائي" (Levinas, 1971, p 108).

يحيي فعل الخلق *créature* على مسافة ميتافيزيقية تثنى البعد بين المخلوق والخالق، أما الرابط بينهما يتجسد بـ "الكلمة"، أو "الصرخة"، فكلمة الإله تصرخ في جل الأمكنة التي يُدركها أثره، فكل كلمة دلالة على الأمر، فهي دعوة للكائنات لأجل أن تكون، والإله الخالق يظل خارج السماوات والأرض، في سفر التكوين يرد "ليفيناس" النص التالي: "ينظر الإله نحو مخلوقاته فيقر أنها جيدة tov ما يعني أن الإله قد فرح بها، كما أن الإنسان التوراتي لن يضطر للهروب منها، ما يعني أن الخلق يتم الحفاظ عليه في الوجود، فهو يتجدد كل يوم، وهذا ما أشار إليه موسى ابن ميمون Maimonide بالتأكيد على أن الكون لن يُترك للصدف والضرورة، لأنّ هناك سر- نية تعمل هناك" (Chalier, 2002, p 24)، وبما أن الخلق هو أيضاً إمكانية بشرية، أو جوهر واقعي فهو يدل على قوة كلمة الرب في إعطاء الوجود، ومعنى هذا هو تحقيق التوراة، وهذا التحقيق لا يتم إلا بالاتيقاء، ما يعني تحمّل المسؤولية تجاه الخلق، فرفض التوراة هو إعادة الوجود للعدم، والتوراة تعني أن تكون لأجل الآخر، لأجل الخلق، أن تنفذ التعاليم والأوامر، وهنا تفضيل للإنسان على باقي الموجودات الأخرى من ناحية الخلق، وهنا سيكون مجد الخلق متجليا في صورة الغير: "إن وجود الغير هو المجد، ومجد الوجود يمر دون أن يلاحظه أحد فهو مثل الوفاة Fatalité، فمجد هذا الأخير يظهر في الآخرين، وهذا يعني أنه يظهر كخلق *création*" (Levinas, 2011, p 96)

5- علاقة الأثر بالرغبة والترنسدنتالي:

نفى "ليفيناس" كل الطرق الممهدة للبحث العقلاني عن الإله، وقد نقد بكل شدة المحاولة "الديكارتية" بهذا الشأن، خصوصاً بإرجاعه إلى فكرة تقبل التأمل والسيطرة، فالمبدأ الترנסدنتالي يرى العلاقة الوحيدة والممكنة مع الإله تكمن في الرغبة الميتافيزيقية، وكل رغبة هي تتبع الأثر الإلهي عبر سبيل الغيرية، فأهمية الرغبة هو أنها مقدسة لا تتعلق بالإشباع أو الرضى، بل هي لطف يتبع عدم تحقق المرغوب فيه، أي اللانهائي، فهي لا تشبع الرغبة البيولوجية التي يحققها أي إنسان، فكل علاقة يقيمها الأنا تجاه الآخر لا تكون إلا بفعل رغبة في اللانهائي أو استجابة له، ما يعني تتبع الأثر الإلهي، فالأثر هو محفّز للعلاقة الميتافيزيقية.

يرجع تسمية الرغبة الميتافيزيقية لكونها مقاس خاص بلا محدودية اللانهائي، أي تجاوز ملكاتنا الإدراكية التي يمكن أن تستوعبه، فهي تعني أن تفكر أكثر مما تعتقد، لذلك علاقة الذات مع الآخر تقود إلى وضع "ما وراء الوجود"، أو "بخلاف" **autrement** (الإله)، ما يعني أنّ العلاقة لا تكون بناءً على ما يبدو من تجلي الوجه، وكذلك الآخر ليس مجرد إنسان وإنّما هو الآخر المطلق **absolument autre**، فكل ما يتعذر عن الظهور والإشباع هو خاصية اللانهائي- الإله- التي لا يمكن أن نستوعبها إلا بالمعنى الأثري، وقيمة اللانهائي أيضاً تعتمد على إلحاح الأنا الدائم، فلاهي لا تحقق الرضى أو السعادة لأنها عبارة عن سلبية **passivité**، فكل علاقة عبارة عن سلبية أصيلة تترجم الفعل الاتيقي، وفقدان الحرية التي تلازم أي فعل، فالأثر لا ينفلت من أي درجة سلبية ممكنة، فصرامة المطلب الأخلاقي لا يفرض بوحشية وإن كان ذا طابع سلبي، وإنّما "قصداً لتتبع الأثر الإلهي نحو الارتفاع الغير محدود، للآخر الذي يمارس لأجله فعل الخير، فالإله يأمرني فقط من خلال الناس الذين أتعامل معهم" (Levinas, 2001, p 246)

يرتبط الأثر عند ليفيناس بترنسندننتالية الآخر، أمّا سبب تقديس الآخر وعلوّ مكانته في العلاقة الاتيقية يرجع أنّه موضع لأثر اللانهائي، فالإله ليس مفهوماً يتجاوز العالم، وبالرغم من استحالة رؤيته وإدراكه إلا أنّه موجود معنا عبر الآخر، فمجد الإله يتجلى بأوامره، وكل أمر يحوي قداسة وسلطة لأنها صادرة منه تتحدى كل مقاومة ممكنة ضده، وهنا تتجلى السلبية المطلقة حيث تفقد الحرية، فلهذا رأي ليفيناس أن بلوغ الأثر الإلهي لا يكون إلا بفعل العلاقات الاجتماعية التي تكون بين الأنا والآخر، بشروط الانفصال وبترنسندننتالية الآخر، وهكذا فقط تصح العلاقات التداوتية والاجتماعية، أي التي لا تقبل المعاملة بالمثل، أو التي تريد أن تجعل من الآخر موضوعاً للدراسة، فأثر الوجه يعبر عن حقيقة الما وراء **l'au delà** التي تدرك بالنظرة "الاخلاقية **regard moral**، فالإله غير معروف ، ولكنه موجود في العلاقة الاجتماعية معنا" (Levinas, 1984, p 24).

بما أنّ الوجه هو المنفذ الوحيد للأثر الإلهي والحقيقة الترנסندننتالي فإنّ المعاملات الإنسانية التي تبدأ مع الأنا والآخر تعبر ديناً، فالسبب الذي جعل "ليفيناس" يسمي العلاقة الاتيقية بالميتافيزيقا والفلسفة الأولى هو لكونها بديلاً عن الدين الانطولوجي أو العقلي (يقصد الديانة اليهودية وديكارت)، فلسفة الدين لا تبتعد عن المجتمع، والإله ليس

غريباً عن عالم البشر، أو بعيداً عن الوجه، فأى علاقة بأثره يجب أن تكون اتيقاً تُعبّر عن تجربة دينية حقيقية، فلا يمكن للتجربة الدينية المحضة أن تسبق الاتيقاً مهما حصل، فالدين يمرّ فقط عما هو إنساني، وهذا ما جعل "ليفيناس" يرى أنّ التوجّه نحو الإله لا يكون إلا بواجب المسؤولية نحو الشخص الآخر، وبهذا الشكل يتجلّى الأثر الإلهي، وذلك من خلال العلاقات الاجتماعية، يقول "ليفيناس" في هذا الصدد "فكرة اللانهائي الموجودة فينا أو علاقتي مع الإله- تأتي من خلال صلابة علاقة مع الانسان الآخر، وفي العلاقة الاجتماعية التي هي عبارة عن مسؤولية تجاه القريب" (Levinas, 1992, p 247)

إنّ أهمية فلسفة الدين عند ليفيناس لا يكمن في البرهنة على وجود الإله، أو في إثبات حقيقة الديانة اليهودية، بل بالعكس هو يتخذها نقطة بدءاً لكي ينتقدها، ويرى بذلك أنّ اليهودية تعني بالحرف الواحد التوجه نحو الآخر، فالأهمية الحقيقية لفلسفة الدين تكمن في التأكيد على قيمة الانسان الآخر، وبحقوقه، أمّا الأثر الحقيقي هو الالتزام بكل حقوق الآخر، المتجسدة في شخص الغير والأرملة والغريب...، فالترنسندننتالي هو شكل لبرانية الوجه، والأثر ليس تأكيد على أهمية الخطاب والأمر الاتيقي الذي إمكانية التنصل من المسؤولية الأساسية نحو الآخر، فالوجه لا يكون له قيمة وسلطة دون الأثر الإلهي الذي يحميه من كل عنف وقتل، ما يعني أنّ مجال التفكير في الإله متاحاً فقط بعيداً عن اللاهوت، حيث سيكون أثر حضوره غياباً، وغيابه حضوراً، ويتحدث "ليفيناس" عن هذه الأهمية بالقول: أعتقد أنّ تواضع الإله *l'humilité de dieu* في حدود معينة، يتيح لنا التفكير في العلاقة مع الترنسندننتالي بمفاهيم غير ساذجة، وغير وحدة الوجود، وأنّ فكرة التعويض- من وجهة نظر- إنّما تكون لازمة وضرورية لفهم الذاتية" (Levinas, 1991, p70)، فالتواضع يعني رفع الحجب عن الإله والتي تتجاوز الطبيعة، فأهميته تكمن في تأسيس ميتافيزيقا ترنسندننتالية تبنى على أثره، والذاتية تعني البحث عن مسؤولية ترضي الإله الذي يقف إلى جانب المسكين والغريب، وكل إنسان.

6- خاتمة

في نهاية هذا المقال سنوجز أهم دلالات الأثر وبعده الترنسندننتالي، فالحقيقة الأخيرة التي يهدف إليها ليفيناس من كل فلسفته هو جعل الاتيقاً أو المنهل الديني أساساً للإتيقا والسياسة، أي البحث عن منطق العدل والسلام مع الآخر كغاية قصوى، وتنفيذ التعاليم

الدينية كتحرير القتل ومنع ارتكاب العنف، وعدم ترك الآخر يموت وحيداً هي من أولويات المسؤولية الغير محدودة، لأجل تأكيد كل هذا يعود "ليفيناس" كما رأينا إلى فكرة الأثر ويربطها "بالغائبية" حتى يكون الآخر غير معروف، وبشكل أوسع يجب ألا تكون علاقاتنا الاتيقية مع من نعرفهم فقط، كما يشترط أن يكون غائباً حتى لا تتم مجادلته بغية رفض المسؤولية، في هذا الموقف ولأجل تحمل الاضطهاد والسلبية يجعل ليفيناس من العلاقة الاتيقية أمراً مقدساً لأنها تنفيذا لأوامر اللانهائي، فمناشدة الإله والمقدس هي ما يجعل تقبل المسؤولية أمراً ممكناً، فلذلك الأثر هو القراءة الأخرى التي لا يكشفها الوجه الإنساني من خلال ظهوره، فهو قراءة أخرى للدين، وقراءة أخرى للإنسان في عالم اليوم، وهذا ما جعل ليفيناس ينقل الترנסندننتالي من مكانه الأنا الترנסندننتالي لدى هوسرل إلى الآخر بهذه حصوله على مرتبة القداسة بكشفه رؤية الأثر الإلهي، وتأسيس كل قيم الهوية والاختلاف.

7: sources and references:

- Emmanuel Levinas,(1971) totality and infinity, essay on exteriority, biblio essay, martinus nijhoff.
- Salomon Malka, (2000),Emmanuel Levinas, life and the trace, JC lattès, France.
- François poire,(1987) Levinas, who are you, the manufacture, paris.
- Catherine Chalier,(2002) trace of the infinite, Emmanuel Levinas, and the Hebrew source, cerf.
- Emmanuel Levinas, (1992)of god who comes to the idea, philosophical bookseller, j. vrin, Sorbonne.
- Emmanuel Levinas,(1972) humanism of the other man, paperback, biblio essay, fata morgana.
- Emmanuel Levinas,(1991) between us, essay on thinking about the other, Bernard grasset, fasquelle, paris.
- Emmanuel Levinas,(2001) discovering existence with Husserl and Heidegger, arthène fayard bookstore and radio France.

- Emmanuel Levinas, (1982) ethics and infinity, dialogue with Philippe N  mo, Arth  ne Fayard bookseller and radio France.

Blay Michel, (2005) great dictionary of philosophy, Larousse, CN RS, - Canada, Quebec.

Sources et r  f  rences:

- Emmanuel Levinas, (1971) totalit   et infini, essai sur l'ext  riorit  , biblio essai, martinus nijhoff.

- Salomon Malka, (2000) Emmanuel Levinas, la vie et la trace, JC latt  s, France.

- Fran  ois poire, (1987) Levinas, qui   tes-vous, la manufacture, paris.

- Catherine Chalier, (2002) trace de l'infini, Emmanuel Levinas, et la source h  bra  ique, cerf.

- Emmanuel Levinas, (1992) de dieu qui vient    l'id  e, libraire philosophique, j. vrin, Sorbonne.

- Emmanuel Levinas, (1972) humanisme de l'autre homme, livre de poche, biblio essai, fata morgana.

- Emmanuel Levinas, (1991) entre nous, essai sur le penser-   l'autre, Bernard grasset, fasquelle, paris.

- Emmanuel Levinas, (2001) en d  couvrant l'existence avec Husserl et Heidegger, librairie Arth  ne fayard et radio France.

- Emmanuel Levinas, (1982)   thique et infini, dialogue avec Philippe N  mo, librairie Arth  ne fayard et radio France.

- Blay Michel, (2005) grand dictionnaire de la philosophie, Larousse, CN RS, canada, Qu  bec.